المعاهدات الدفاعية

أقدم ما عرف منها

معاهدة رمسيس الثاني مع الحيثيين

للدكتور حسن كمال

حوالي سنة ١٢٨٨ ق . م . زحف رمسيس الثاني بجيشه العرمرم من مدينة (تارو) على حدود مصر الشمالية الشرقية متولياً قيادة فيلق امون يتقدمه الجيش تلوه فيالق رع وبتاح وسوخ بهذا الترتيب . وزحف رمسيس الثاني على شاطىء فينيقيا حتى بلغ لبنان ثم تتبع طريق وادي الكلب وبلغ نهر العاصي في اواخر شهر مايو اي بعد مرور تسعة وعشرين يوماً على مغادرته حصن (تارو) القريب من الاسماعيلية الحديثة وضرب خيامه على مقربة من مدينة (كدش)

وعند كدش وقعت أقدم المعارك الحربية المعروفة بالضبط . هناك التقت الجيوش المصرية بالجيوش الحيثية والتحمت المدينة الاقريقية بالمدينة الاسيوية وكان القتال شديداً وأبلى الفريقان بلاء حسناً وكاد المصريون يخسرون المعركة لولا الامدادات التي وصلتهم في آخر لحظة على نحو ما حدث في معركة وترلو . وتشاهد اخبار هذه المعركة منقوشة نقوشاً بارزة زاهية على جدر معبد ابي سنبل والدر والرماسيوم ومعبد الأقصر والكرنك والعرابة وغيرذلك من العمارات التي بنيت وتنثر . ومن اهم المكتشفات الحديثة جهة (بوغازكوى) بآسيا الصغرى نصوص مسمارية استدل منها على ان النفوذ الحيثي كان مبسوطاً على مملكة آمور وواصلاً الى شمال فلسطين

ويتضح لكل من تتبع اخبار هذه المعركة ان اهالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانوا ملمين بميزات المواقع الحربية وتقسيم القوات المحاربة قبل القتال وان الحيثيين برعوا في القيام بحركات خفية دون معرفة المصريين وانهم قسموا جيشهم الى قلب وجناحين . ولذلك كانت معركة (كدش) أقدم معركة تاريخية استعمل فيها هذا التقسيم الحربي . وبناء عليه تكون سهول سوريا

قد شاهدت اقدم انواع هذه الحركات الحربية التي اتقنها نابليون وفاق فيها سواه والتي تعرف الآن بفن « الانتصار قبل القتال »

لكن تأثير معركة (كدش) الحربي في سكان فلسطين وسوريا كان عميقاً على الرغم مما اظهره رمسيس من الشجاعة والاقدام . ثم ان الحيثيين اتخذوا عدم الفصل في معركة (كدش) مجالاً للتحرش فوطدوا نفوذهم في آسيا وبثوا الفتن والقلاقل بالمستعمرات المصرية الآسيوية . وقد حصل أن ثبت فعلاً نيران الثورة تدريجاً حتى بلغت الشمال الشرقي للدلتا فاضطر رمسيس أن يعيد الكرة عليهم . ولذلك كرّ زحفه على وادي العاصي فطرد الحيثيين منهُ ويستدلُّ من الآثار ضمناً ان جلالتهُ استولى على (كدش) وزحف على (توب) ببلاد النهرين

وثار رمسيس الثاني على حروب آسيا خمسة عشر سنة تقريباً ثم وقع حادث داخلي هام بمملكة الحيثيين أوقف حروبهُ هناك فجأة الى الأبد . وتلخص هذا الحادث في ان (متلا) ملك الحيثيين توفي في معركة حربية فتبوأ أخوهُ (خيتاسار) الملك بعده . ولشدَّة حاجة هذا الأخير الى صون مقامهِ وغلب معارضيهِ عرض على رمسيس الثاني مشروع معاهدة لابطال الحروب وتوطيد السلام بينهما بآسيا

قال الاستاذ برستد وفي السنة الحادية والعشرين من حكم رمسيس الثاني (أي حوالي سنة ١٢٧٢ ق . م) وصلت رسل خيتاسار الى القصر الفرعوني وكان وقتئذٍ بالدلتا . ولا بدَّ ان يكون الطرفان اتفقا سابقاً على صورة هذه المعاهدة بمساعدة مثليها لأن الآثار دلتنا ان الرسل لم يرسلوا وقتئذٍ الاَّ للموافقة النهائية على المعاهدة . وقد نقشت هذه المعاهدة على لوح فضي وتشمل ثماني عشرة مادة رسم في أعلاها المعبودة (سوتخ) محتضنة ملك الحيثيين وبجوارها المعبودة عينها محتضنة ملكة الحيثيين المدعوة (پوتو خيبا) زوج (خيتاسار) وبجوار هذه الرسوم وضعت أختام (سوتخ) معبودة الحيثيين و (رع) معبود (إرمن) و (رمسيس) و (خيتاسار) ويرجح أن ملك الحيثيين احتفظ بنسخة أخرى من هذه المعاهدة . وتعتبر هذه أقدم معاهدة دولية معروفة واليك ترجمة ديباجتها وملخص موادها : —

(١) ﴿ الديباجة ﴾ « معاهدة منقوشة على لوح فضي بين ملك الحيثين (خيتاسار) الشجاع ابن (ميواسار) ملك الحيثين الشجاع ابن ابن (سبلل) ملك الحيثين الشجاع (فريق أول) ورمسيس الثاني الملقب (امر معارع استپنرع) حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن (سيتي) الاول حاكم مصر الأعظم الشجاع ابن ابن رمسيس الاول حاكم مصر الأعظم الشجاع (فريق ثان) هذه المعاهدة الطيبة عملت لحفظ السلام والاخاء واستتباب السكينة بين الطرفين الى الأزل

(٢) ﴿ العلاقات السابقة بين الأمتين ﴾ كانت العلاقات منذ الأزل بين ملك مصر وملك

الحيثيين علاقات ودية دائمة فتشاحنت وموظفة بعاصمة . ثم أتى (حتي) بعد الخارب (رمسيس) الثاني . بعد ذلك أن دور (خيتاسار) فأراد توطيد السلام بين الأمتين عاقداً بذلك الحروب الى الأبد مستعيناً بالمجردين (رع) — معبود المصريين — و (سوتخ) — معبود الحيثيين

(٣) ﴿المعاهدة الحديثة﴾ ومنذ اليوم أصبح (خيتاسار) ملك الحيثيين في صفاء وأخاء مع (رمسيس الثاني) ملك مصر . وستكون ذرية ملك الحيثيين الأعظم في أخاء وصفاء مع ذرية (رمسيس الثاني) ملك مصر . وستكون كذلك مملكة الحيثيين في أخاء وصفاء مع المملكة المصرية

(٤) ﴿عدم الاعتداء﴾ تبطل الحروب بين الفريقين الى الأبد . ويتعهد ملك الحيثيين بأن لا يغزو الاراضي المصرية للاستيلاء على شيء منها . ويتعهد رمسيس الثاني بأن لا يغزو مملكة الحيثيين للاستيلاء . على شيء منها

(٥) ﴿الاعتراف بالمعاهدات السابقة﴾ يتعهد ملك الحيثيين الحالي بمراعاة نصوص المعاهدتين اللتين أبرمهما أبوه وجده من قبل . ويتعهد رمسيس الثاني بأن يراعي أيضاً المعاهدتين المذكورتين منذ اليوم

(٦) ﴿التعهد الدفاعي﴾ اذا هاجم عدوّ المملكة المصرية واستنجد (رمسيس الثاني) بملك الحيثيين فعلى هذا الاخير ان يأتي بنفسه ويشترك في صد العدوّ . وإذا لم يرغب ملك الحيثيين في الحضور فعليه ان يرسل قوّاته الحربية من مشاة ومجلات لقتال مهاجم مصر

واذا شقت مستعمرة مصرية عصا الطاعة على ملك مصر وأراد هذا الاخير أن يعاقبها ويخضعها فعلى ملك الحيثيين ان يساعد ملك مصر في ذلك

واذا هاجم عدوّ مملكة الحيثيين واستنجد ملك الحيثيين بملك مصر فعلى هذا الاخير ان يأتي بنفسه ليشترك في صد العدو . واذا لم يرغب ملك مصر في الحضور فعليه أن يرسل قواته الحربية من مشاة ومجلات لقتال مهاجم الحيثيين

واذا شقت مستعمرة حيثية عصا الطاعة على ملك الحيثيين وأراد هذا الاخير عقابها واخضاعها فعلى ملك مصر ان يساعد ملك الحيثيين في ذلك

(٧) ﴿معاملة الهاربين السياسيين المصريين﴾ اذا هبط مصري رفيع المقام ارض الحيثيين وكان هارباً سياسيًّا فيتحتم على ملك الحيثيين ان لا يؤويه في مملكته بل يرسله الى فرعون مصر رمسيس الثاني

(٨) ﴿معاملة المهاجرين المصريين﴾ اذا هاجر مصري او مصريان من طبقة الشعب المجهولة (اي الوضيعة) الى مملكة الحيثيين ليعاملوا معاملة رعايا الدول الاجنبية فان مثل هؤلاء لا يسمح لهم بالمعيشة بالاراضي الحيثية بل يرسلوا الى رمسيس الثاني حاكم مصر الاعظم

(٩) في معاملة الهاربين السياسيين الحيثيين اذا هبط حيثي ارض المذنب الارضي المصرية وكان هارباً سياسياً فيتحتم على ملك مصر ان لا يؤويه في مملكته بل يرسله الى ملك الحيثيين

(١٠) في معاملة المهاجرين الحيثيين اذا هاجر حيثي او حيثيان او ثلاثة من طبقة الشعب المجهولة (اي الوضيعة) الى المملكة المصرية ليعاملوا معاملة رعايا الدول الاجنبية فان ملك مصر لا يسمح لهم بالمعيشة بالمملكة المصرية بل يرسلهم الى حاكم الحيثيين الاعظم

ويلي ذلك ملحق يحض على استعمال الرأفة في معاملة هؤلاء الاشخاص والاستشهاد بألف معبود ومعبودة من مملكة الحيثيين وألف معبود ومعبودة من مملكة مصر لهذه المعاهدة . وقد علمنا منها عدة معبودات حيثية ومحل عبادتها . وتنتهي المعاهدة بصب اللعنات على كل من يخالف شروطها وبطلب الرحمة والسلام لكل من يحترمها . والظاهر ان اللاحقة الاخيرة صيغت في آخر الامر

وقد امر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة بسرعة على جدران معبدين له بطيبة قدم لها بوصف وصول رسل الحيثيين وأورد بعد ذلك رسم المعبودات والاشخاص الوارد ذكرهم في الالواح القضي المذكور . وقد عثر وينكلر على صورة مبدئية لهذه المعاهدة منقوشة بالخط المسماري على قالب لبن في بوغاز كوى بآسيا الصغرى

ولم يرد في هذه المعاهدة بيان حدود المملكتين المصرية والحيثية ولكن يرجح أنها عينت في معاهدة سابقاً . ومن الصعب وصف هذه الحدود بالضبط . ولكنهُ يستدل من النقوش المسمارية التي عثر عليها وينكلر ان الحيثيين استمروا حاكمين آمور بأعالي العاصي لذلك لم يثبت تماماً هل كان رمسيس الثاني قد وسع حدود مستعمراته كثيراً عما كانت عليه في عهد والده . ولكن الظاهر انهُ أبعدها جهة الشاطىء قرب بيروت لانهُ اقام حجرين أثريين هناك غير الحجر الذي اقامهُ في السنة الرابعة من حكمه . ويفهم من نصوص المعاهدة ان رمسيس الثاني تواضع فساوى نفسهُ بملك الحيثيين . وهذا لم يمنع رمسيس ان يدعي لنفسهِ الفوز والنصر وينحل لقب «قاهر الحيثيين»

منذ ذلك الوقت انتهت الحرب وخيم السلام على المملكتين . فوقف رمسيس الثاني بآسيا عند حده . والظاهر ان شروط المعاهدة جاءت في مصلحة الفريقين كثيراً لانهُ بعد ابرامها بثلاث عشرة سنة (حوالي سنة ١٢٥٩ ق . م .) زار ملك الحيثيين مصر وحضر الاحتفال بزفاف كريمته الكبرى الى رمسيس الثاني . ودلتنا الآثار ان مجيء ملك الحيثيين اقتضى اقامة احتفال عظيم بالقصر الملكي تقدمته كرعة جلالته متبوعة بالهدايا الجزيلة ثم جلالة خيتاسار نفسه ثم ملك كود . واختلط وقتئذٍ حرس الحيثيين بالجنود المصرية بعد ما كانوا ألد الأعداء ثم سميت الاميرة الحيثية باسم مصري هو (معات نفرورع) اي الناظرة محاسن الشمس واحتلت مكاناً مبجلاً بالقصر الملكي